محاضرة عن الجمال في الفلسفة القديمة

(افلاطون- أرسطو) (المحاضرة الثالثة والرابعة)

مقدمة

تُعد دراسة الجمال من أقدم وأعمق الموضوعات التي شغلت الفكر الإنساني عبر العصور، وقد حظيت باهتمام بالغ من قبل الفلاسفة منذ فجر الحضارات في الفلسفة القديمة، لم يكن الجمال مجرد مفهوم سطحي يتعلق بالمظهر الخارجي، بل كان جزءًا لا يتجزأ من رؤية الفلاسفة للعالم، الأخلاق، والمعرفة هذه المحاضرة ستستكشف مفهوم الجمال في الفلسفة القديمة، مع التركيز بشكل خاص على مساهمات اثنين من أبرز الفلاسفة اليونانيين: أفلاطون وأرسطو، اللذين أرسيا دعائم الفكر الجمالي الذي لا يزال يؤثر فينا حتى اليوم.

سنبدأ بنظرة عامة على الجماليات في العصور القديمة، ثم نتعمق في فهم أفلاطون للجمال كفكرة مطلقة تتجاوز العالم المادي، وكيف ارتبط الجمال عنده بالخير والحب بعد ذلك، سنتناول رؤية أرسطو للجمال كخاصية متأصلة في الأشياء نفسها، ترتبط بالتناسق والتناسب والغاية وأخيرًا، سنقوم بمقارنة بين هذين الفيلسوفين العظيمين لنبرز أوجه التشابه والاختلاف في تصوراتهما للجمال، وكيف شكلت أفكارهما الإرث الفلسفي للجماليات.

الجماليات القديمة: نظرة عامة

تعود جذور الاهتمام بالجمال إلى عصور ما قبل التاريخ، حيث نجد أمثلة نادرة من الفن البدائي التي تشير إلى وعي جمالي مبكر، وإن كانت سياقات إنتاجها واستخدامها غير واضحة تمامًا ومع ظهور الحضارات القديمة الكبرى مثل مصر، بلاد ما بين النهرين، بلاد فارس، اليونان، الصين، روما، الهند، والمايا، بدأت تتشكل مذاهب جمالية أكثر وضوحًا، حيث طورت كل حضارة أسلوبًا فنيًا فريدًا ومميزًا يعكس قيمها ومعتقداتها.

في الغرب، كان لليونان القديمة التأثير الأكبر على تطور علم الجمال، فقد أولى الفلاسفة اليونانيون اهتمامًا كبيرًا للجمال، ورأوا فيه تجسيدًا للمادية والبشرية، لقد سعوا إلى تنمية المهارات التي تظهر العضلات، الاتزان، والجمال، والنسب التشريحية الصحيحة في فنونهم في البداية، اعتقد الفلاسفة اليونانيون أن الأجسام الجذابة جماليًا كانت جميلة في حد ذاتها على سبيل المثال رأى أفلاطون أن الأشياء الجميلة تتميز بالنسبة والوفاق والوحدة بين أجزائها وبالمثل في الميتافيزيقا، كما وجد أرسطو أن العناصر العالمية للجمال تتمثل في النظام، والتماثل، والوضوح هذه المفاهيم الأولية شكلت الأساس الذي بنيت عليه النظريات الجمالية الأكثر تعقيدًا في الفلسفة اليونانية.

الجمال عند أفلاطون:

يُعد أفلاطون أول فيلسوف صاغ موقفًا متكاملًا ونسقًا في الجمال، تأثر بأستاذه سقراط، لكن معظم ما نعرفه عن سقراط يأتي من كتابات أفلاطون نفسه، حيث يرى أفلاطون أن الجمال

هو أحد المثل الموجودة في عالم المثل، وهو عالم الحقيقة المجردة الذي لا تشوبه أي نواقص، إلى جانب مثل الخير والحق.

بدأ أفلاطون باكتشاف مثال الجمال من خلال تأمله في الجمال الموجود في العالم الحسي أو المادي ومع ذلك، تطور مفهومه للجمال ليدرك أن الجمال الحسي ناقص وزائل، ويمكن ملاحظته من خلال الحواس فقط، ويقع ضمن نطاق الظن، فالجمالات الجسدية ليست إلا ظلالًا لجمال واحد مطلق.

يتميز مثال الجمال عند أفلاطون بالوحدة والسمو والثبات، اذ ان فلسفته تقوم على البحث عما هو ثابت في عالم مادي يتميز بالتغير الدائم. النفس، إذا أعجبت بشيء جميل، فإنها تدرك الصفات المادية لهذا الشيء، ولكن أفلاطون يتساءل عن مصدر هذه الصفات، ويجيب بأنها فائضة من مثال الجمال المطلق. من هذا المنطلق، يرتفع التفكير من المعلول إلى العلة، ويحاول الوصول إلى النفس الجميلة المجردة من العوارض، مما يشير إلى أن الجمال أمر معنوي لا يقاس بالمظهر، وبهذا تطور المفهوم الأفلاطوني للجمال ليشمل الفنون والعلوم النظرية، وكل هذا يمهد للوصول إلى نظرية المثل، وهي نظرية أنطولوجية مثالية تعالج بحث أفلاطون عن حقيقة الوجود.

إرهاصات سقراط في الجمال:

دوّن أفلاطون محاورات سقراط، والتي تضمنت آراءه في الجمال، في محاورة أيون يظهر موقف سقراط العقلي المتشدد في الفن والجمال، حيث رفض الفنون التي تعتمد على إيهام الجماهير بالمتعة. من هذا المنطلق طور أفلاطون فكرة الفن والجمال لذاتهما، ورفض التعامل معهما بطريقة براغماتية، خلاصة هذا أن الجميل لا يكون جميلًا إلا لذاته، وليس لتحقيق منفعة أو لذة زائلة.

وصف سقراط في هذه المحاورة أن من لا يعقل شيئًا من جماليات الفنون كالمسحور أو المنوم مغناطيسيًا، اذ وضع شروطًا أساسية لنظرية الفن لتحقيق هدف السمو وألا يكون أداتيًا من القيم التي يضيفها الفن والجمال القيم الأخلاقية والسمو بالإنسانية، لذلك عرّف سقراط الجميل بأنه نافع، لكن مفهومه للنافع يختلف عن الأطروحات المادية والبراغماتية، فالنفع لا يكون باللذة الجسدية، والجمال الحسي لا ينفع المحب ولا المحبوب. إلا أن جمال النفس هو من يصنع القادة والأبطال. وكأن سقراط يقول إن الجمال يرد إلى الخير، والفن يجب أن يكرس الأخلاق. ولهذا هاجم الشعراء سقراط، وأثاروا العامة حول آرائه. لكن بعض المفكرين اللاحقين وجدوا أن هذا تطرف محض، وطور أفلاطون هذا الرأي لدرجة أنه طرد الشعراء من الجمهورية.

رفض سقراط الأساطير في محاورة المأدبة، لأنها تجعل الإنسان يحيد عن الصواب. هذه الأساطير وجدت في التراث اليوناني وذكرت في أشعارهم ونثرهم، إلا أن سقراط اكتفى بالرواية المتواترة، واتخذ موقفًا خاصًا به بميله إلى ما قاله العلماء.

حقيقة الامر ان هناك درجات للجمال عند أفلاطون، أولها الجمال الجسدي، ووضعه في أسفل هرم الجمال، ثم يليه جمال الأخلاق والنفس، وهنا يتطور الجمال ويندرج تحت مبحث الأكسيولوجيا أو القيم، فيصبح قيمة بذاته، أما أعلى درجات الجمال فهو الجمال المطلق، ويقع

في قمة هرم الجمال، هذا الجمال عقلي محض، ويحتاج الوصول إليه إلى الحزم الأخلاقي وضبط النفس والترفع عن الملذات الحسية.

أكد افلاطون في محاورات مثل فايدروس أو المأدبة، وأيون، على الجدلية القائمة بين الحب والجمال، فكلاهما لا يتحقق إلا بعودة الروح إلى عالم المثل، وببلوغ الإنسان المستوى الجمالي المثالي، يكون قد بلغ موضوع الحب الذي يتجه إلى الجمال، وعلاقة مثال الجمال قوية بمثال الخير عند أفلاطون، فالوصول إلى مثال الخير مرتبط بالوصول إلى مثال الجمال، فالإنسان لا يستشعر الجمال إلا بعد أن يكون قد حقق الخير الكثير.

الجمال عند أرسطو:

على عكس أفلاطون الذي ركز على الجمال كفكرة مجردة ومثالية، تناول أرسطو الجمال من منظور أكثر واقعية ومادية، حيث ربطه بالخصائص المتأصلة في الأشياء نفسها، فقد رأى أرسطو أن الجمال هو انسجام الوحدة في التنوع، أي أن الجمال ينبع من الترتيب والتناسق والتناسب بين أجزاء الشيء الواحد، مما يخلق وحدة متكاملة ومتناغمة.

كما اعتبر أرسطو الفن وسيلة للوصول إلى الحقيقة، شأنه في ذلك شأن الفلسفة، فالفن من وجهة نظره، يحاكي الطبيعة، ولكنه لا يكتفي بمجرد التقليد السطحي، بل يسعى إلى إظهار الجوهر الكامن في الأشياء وتجسيدها في صور فنية هذا يعني أن الفن لا يعكس الواقع كما هو، بل يعيد تشكيله بطريقة تبرز جماله وحقيقته.

في فلسفة الفن والشعر عند أرسطو، يبرز مفهوم التطهير (الكاثارسيس) كعنصر أساسي في التجربة الجمالية، خاصة في التراجيديا، فمن خلال مشاهدة الأعمال الفنية التي تثير مشاعر الخوف والشفقة، يتمكن المتلقي من تطهير هذه المشاعر والوصول إلى حالة من التوازن النفسي، هذا يدل على أن الجمال عند أرسطو ليس مجرد متعة حسية، بل هو تجربة عميقة تؤثر في الروح والعقل.

يمكن تلخيص تعريف الجمال عند أرسطو في ثلاثة عناصر رئيسية: التناسق، التناسب، والغاية، فالتناسق يشير إلى الانسجام بين الأجزاء، والتناسب يتعلق بالعلاقات الصحيحة بين هذه الأجزاء، أما الغاية فتعني أن كل شيء جميل يجب أن يكون له غرض أو وظيفة محددة، وأن جماله يكمن في تحقيقه لهذه الغاية بكفاءة، هذه العناصر مجتمعة تشكل رؤية أرسطو للجمال كخاصية موضوعية يمكن إدراكها وتحليلها في العالم المادي.

مقارنة بين أفلاطون وأرسطو:

تختلف رؤى أفلاطون وأرسطو للجمال في جوهرها، إلا أنهما يتفقان على أهمية الجمال ودوره في الفلسفة والحياة الإنسانية، يمكن تلخيص أوجه التشابه والاختلاف بينهما كالتالي:

أوجه الاختلاف:

• مصدر الجمال: يرى أفلاطون أن الجمال موجود في عالم المثل، وهو عالم مجرد ومثالي، وأن الجمال الذي نراه في العالم المادي هو مجرد انعكاس أو ظل لهذا الجمال المطلق، بينما يرى أرسطو أن الجمال متأصل في الأشياء نفسها، وينبع من خصائصها الموضوعية مثل التناسق والتناسب والغاية.

• طبيعة الجمال: الجمال عند أفلاطون هو مفهوم ميتافيزيقي، عقلي، وروحي، يتطلب الارتقاء بالنفس والترفع عن الملذات الحسية لإدراكه، أما الجمال عند أرسطو فهو مفهوم مادي، حسي، ويمكن إدراكه من خلال التجربة والملاحظة.

• دور الفن: يرى أفلاطون أن الفن محاكاة للواقع، والواقع نفسه محاكاة للمثل، وبالتالي فإن الفن يبعدنا عن الحقيقة، وقد طرد الشعراء من جمهوريته المثالية. في المقابل، يرى أرسطو أن الفن محاكاة للطبيعة، ولكنه محاكاة إبداعية تهدف إلى إظهار الجوهر والحقيقة الكامنة في الأشياء، ويعتبر الفن وسيلة للوصول إلى الحقيقة والتطهير النفسي.

أوجه التشابه:

• الأهمية: كلاهما يولي الجمال أهمية قصوى في فلسفتهما، ويعتبرانه جزءًا أساسيًا من فهم الوجود والحقيقة.

• الانسجام والتوازن: يتفق كلاهما على أن الانسجام والتوازن من مكونات الجمال، وإن اختلفت مصادر هذا الانسجام (مثالي عند أفلاطون، ومادي عند أرسطو).

• الارتباط بالخير: يربط كلاهما الجمال بالخير، فالجمال عند أفلاطون يؤدي إلى الخير المطلق، وعند أرسطو فإن الفن الجميل يساهم في تحقيق غايات أخلاقية ونفسية.

لقد أثرت أفكار أفلاطون وأرسطو بشكل عميق في الفلسفة الغربية لقرون عديدة، وشكلت الأساس الذي بنيت عليه النظريات الجمالية اللاحقة، فبينما ألهم أفلاطون الفلاسفة الذين ركزوا على الجمال المثالي والميتافيزيقي، مهد أرسطو الطريق للفلاسفة الذين اهتموا بالجمال المادي والتجريبي، مما أثرى النقاش حول طبيعة الجمال ودوره في الوجود الإنساني.

خاتمة

في الختام، يتضح لنا أن مفهوم الجمال في الفلسفة القديمة، وخاصة عند أفلاطون وأرسطو، كان عميقًا ومتعدد الأوجه، فبينما قدم أفلاطون رؤية مثالية للجمال كفكرة مجردة تتجاوز العالم المادي وترتبط بالخير والحب، قدم أرسطو منظورًا أكثر واقعية، حيث رأى الجمال كخاصية متأصلة في الأشياء نفسها، تنبع من التناسق والتناسب والغاية، على الرغم من اختلاف مقارباتهما، إلا أنهما اتفقا على الأهمية الجوهرية للجمال في فهم الوجود والحقيقة، فإن الإرث الذي تركه هؤلاء الفلاسفة القدماء لا يزال حيًا ومؤثرًا في الفكر الجمالي الحديث. فالمناقشات حول طبيعة الجمال، ما إذا كان موضوعيًا أم ذاتيًا، مثاليًا أم ماديًا، لا تزال تشكل محورًا أساسيًا في فلسفة الجمال المعاصرة. إن فهمنا لهذه الجذور الفلسفية يساعدنا على تقدير

تعقيد وثراء مفهوم الجمال، ويدعونا إلى التفكير في كيفية تأثير الجمال على حياتنا، أخلاقنا، وإدراكنا للعالم من حولنا.

تبقى أسئلة مفتوحة للتفكير: هل الجمال في عين الناظر أم في الشيء المنظور؟ هل يمكن للجمال أن يكون وسيلة للوصول إلى الحقيقة؟ وكيف يمكننا تطبيق هذه الأفكار الفلسفية القديمة على فهمنا للجمال في عالمنا المعاصر؟ إن استكشاف هذه الأسئلة يفتح آفاقًا جديدة للتأمل في أحد أروع جوانب التجربة الإنسانية.